مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 23 العدد: 4 السّنة: الثّلاثيّ الثّالث 2021 ص413 - 438

دراسة وتقديم مخطوط تلخيص الجمان من حياة الحيوان لمحمّد المصطفى بن زرفة الدّحاوي

descriptive study of the manuscript entitled talkhisse el Juman from the life of the animal

أ. تقي الدّين بوكعبر*
أ. دحو فغرور**

تاريخ الاستلام: 06- 02- 2019 / تاريخ القبــول: 23- 05- 2021

التعريف الرقمي للمقال: doi 10.33705/0114-023-004-021

ملخّص: إنّ المشتغل في حقل التّاريخ لا يمكنه أن يخوض غمار هذا البحر العميق دون الرّجوع والاعتماد على الوثائق التّاريخيّة، هذه الوثائق التي قد تأخذ أشكال مختلفة من رسائل ومؤلّفات وآثار ومباني وروايات بمختلف أصنافها، ولعلّ من أهم مصادر كتابة التّاريخ عموما المخطوطات، التي تعتبر خزان معلومات أرّخ فيها أصحابها لفترات عيشهم وسجلوا عليها أحداث عصرهم، فكانت هذه المخطوطات من أهم الوسائل المعينة للباحث على فهم الحدث التّاريخي، واستنباط أنماط الحياة وطرق العيش وأصناف النّاس ودرجاتهم، بل تعكس لنا هذا المخطوطات آمال النّاس وآلامهم.يهدف هذا المقال الموسوم بـ: "دراسة وتقديم مخطوط تلخيص الجمان من حياة الحيوان لمحمّد المصطفى بن زرفة الدّحاوي" إلى تسليط الضّوء على أحد أعلام الجزائر العثمانيّة من خلال تسليط الضّوء على بعض مؤلّفاته العلّميّة

كلمات مفتاحيه: محمّد المصطفى؛ حياة الحيوان؛ الدّميري؛ تلخيص الجمان.

* جامعة وهران01 أحمد بن بلّة، الجزائر، البريد الإلكتروني: takieddine.boukaabar@gmail.com (المؤلّف المرسل)

** جامعة وهران01 أحمد بن بلّة، الجزائر، البريد الإلكتروني: dahofaghrour@hotmail.com

Abstract: The objective of this article is to study and present the manuscript of talkhisse el Juman from the life of the animal to this article aims to clarify some dark point in the life of chiek Mohammed Al-Mustafa bin Zarfa Al-Dahawi

Keywords

Mohamed al mostapha; hayatte al hayawaen; al damirri; talkhisso al jomanne.

مقدّمة: يخطئ من يظن أنّ مبلغ علم علماء الجزائر اقتصر على العوم الدّينيّة ولم يتعداه إلى ما سواه من علوم فهذه نظرة أحاديّة لم يلم صاحبها بكل جوانب تراث علمائنا ويكفي الاطلاع على ما دوّنه بعض علماء الجزائر لمعرفة أنّه كان لهم مشاركات في العلّوم العقليّة، نعم هذه المشاركات لم ترق إلى حد أن تكون تيار عام لدى كل العلّماء بل كانت جهودًا فرديّة تعبر عن ثورة على الأوضاع العلّميّة التي وصلتها الجزائر خاصّة أواخر فترة التّواجد التّركي بالجزائر، فالكثير من الرّحالة الأجانب حين زيارتهم لها قد صرحوا بعدم وجود مستشفيات أو صيدليات في أهم المدن الجزائريّة آنذاك، لكن هذا لا يعني عدم وجود ممارسة طبيّة، بل وجدت لكن بطرق أقل ما يقال عنها متأخرة بالمقارنة إلى الثّورة العلّميّة الحاصلة في أوربا، ولعلّ عدم اهتمام الجزائريين بالطّب الحديث يكمن في عدم تشجيع السّلطة له، هذه السّلطة التي كانت تعتبر أنّ أغلي وأهم الأسرى المسيحيين أولائك الذين لهم أدنى إطلاع بالممارسة الطّبيّة الحديثة، فكان أولى الاهتمام بتنشئة أطباء محليين بدل اللجوء إلى أسرى.

تميّزت الممارسة الطّبيّة في الجزائر بالاعتماد الشّبه كلّي على الموروث الحضاري الذي تركه علماء الأمّة، ولعلّ اهتمام علماء الجزائر وبالخصوص علماء بايلك الغرب بكتاب حياة الحيوان لهذا الاعتبار أي لما تضمّنه هذا الكتاب من وصفات الطّبيّة ومجرّبات وأدعيّة ورقى من شأنها أن تخفّف آلام المرضى.

اهتمام علماء الجزائر بكتاب حياة الحيوان: كتاب حياة الحيوان كتاب معروف في الأوساط العلّميّة في بايلك الغرب ولا أدل على ذلك من وجود نسخة منه في خزانة الباي محمّد الكبير ومن بعده الباي محمّد بن عثمان هذا الأخير الذي كان ممّن

يطالعه ويناقش العلّماء حول مضمونه، كما نقل ابن سحنون بعض العبارات الواردة عند الدّميري وهذا دليل على اطلاعه عليه عبارات أوردها في معرض الحديث عن الاستشفاء من سم الحيات (ابن سحنون، 403:2013). كما وجد بخزانات بايات الغرب نسخة عن كتاب حاوي الحسان من حياة الحيوان تأليف الشّيخ محمّد بن عبد القادر بن محمّد الدّميري الحنفي وهو أحد اختصارات كتاب الحيوان للدميري، توجد نسخة مخطوطة منه محفوظة بالمكتبة الوطنيّة الفرنسيّة بباريس تحت رقم 2799 تقع في 358 لوحة ويظهر أنها من المخطوطات التي نهبها جنود الاستدمار الفرنسي أثناء احتلال الجزائر ونقل الشّيخ محمّد المصطفى كثيرا من هذا الكتاب في رحلته القمريّة.

كما تم العثور بإحدى الخزائن الخاصّة بمدينة معسكر على مخطوط هو عبارة عن تلخيص لكتاب حيوان الحيوان، يقع في حوالي 14 لوحة حرص صاحبه على ذكر خواص الحيوانات فقط وهذا دليل على استعمالها في الجانب الطّبي، كما تم الوقوف على كثير من المخطوطات التي كتب على جلودها وصفات طبيّة في البداية اعتقدنا أنّها عبارة عن وصفات خاصّة أو ما شابه، ثم تبيّن لنا أنّها نقولات عن كتاب حياة الحيوان.

ونرجح اهتمام علماء الجزائر بوجه عام وعلماء بايلك الغرب على وجه الخصوص بكتب خواص الحيوانات نظرا لكثافة الغطاء النّباتي وبالتّالي التّنوع الحيواني، فجزائر اليوم من حيث الغطاء النّباتي والثّراء الحيواني ليست جزائر 1830م، فقد كانت تعجّ الغابات بشتّى أنواع الحيوانات المفترسة والسّامة، وكان العامّة والخاصّة يمارسون هاويات الصّيد ولا أدل على ذلك من الشّروح العديدة لمنظومة السّلوانيّة في الصّيد للفجيجي التي شرحها ابن سحنون كما شرحها الشّيخ أبو راس النّاصر بطلب من البايات.

ترجمة الشّيخ محمّد المصطفى:

أ- ضبط اسمه: لقد ضبط الشّيخ محمّد المصطفى الدّحاوي اسمه في كتبه على النّحو التّالي: في كتابه الاكتفاء في حكم جوائز الأمراء والخلفاء قال "المصطفى بن عبد الله الشّهير بنسب الشّيخ الولي عبد الرّحمن بن علي المعروف بمرضعة جدّه زرفة "(الدّحاوي،الإكتفا:01)، وفي كتابه الرّحلة القمريّة ذكر اسمه فقال:" محمّد المصطفى بن عبد الله ابن عبد الرّحمن المعروف بابن زرفة مرضعة جده "(الدّحاوي

الرّحلة:03)، أمّا في كتابه تلخيص الجمان فذكر اسمه فقال:" محمّد المصطفى ابن عبد الله ابن عبد الرّحمن المضاف في النّسب لمرضعة جدّه زرفة "(الدّحاوي، الجمان:03).

من هده النّصوص الثّلاثة يتضح أنّ اسمه هو محمّد المصطفى بن عبد الله، ينتسب إلى عائلة سيدي دحو الشّهيرة بإقليم الرّاشديّة بمعسكر، طبعا لا يوجد اختلاف في طريقة ضبط الشّيخ لاسمه في كتبه الثّلاثة، لكن الإشكال أنّه لم يوضّح قربه أو بعده عن جدّه الشّيخ سيدي دحو أي كم حلقة بينه وبين جدّه سيدي دحو؟ حيث لا يعلم لسيدي دحو ابن اسمه عبد الله.

ب- مولده ونشأته: رغم شهرة الشّيخ محمّد المصطفى الدّحاوي وأهميّة كتاباته التّاريخيّة في معرفة التّطورات التي عرفتها المنطقة خلال فترة حياته، إلاّ أنّ الباحث يبقى متعجّبا من الظّلام والتّعتيم الذي يخيم على سيرة هذا الرّجل، فلا توجد أي إشارة معروفة تحدد لنا تاريخ ومكان ميلاده الدّقيق، وإن كان يمكن التّكهّن بأنّ مولده كان بمسقط رأسه قرب ضريح سلفه سيدي دحو لكن لا يمكن بأي حال من الأحوال معرفة تاريخ ميلاده الدّقيق، كما أنّ الإحاطة ببعض تفاصيل حياته تبقى لحد السّاعة مجهولة فلا يعلم مثلا من هو أبوه عبد الله، وكم بينه وبين سيدي دحو بن زرفة ولا يعرف من هي أمّه، أشار ابن سحنون أنّه كان له أخ وشارك معه في فتح وهران لكن لم يذكر اسمه ولا نشاطاته خلال الفتح، ويظهر من خلال أجازة الشّيخ الجلالي لأحد طلبته أنّ أخ الشّيخ محمّد المصطفى الدّحاوي. هو عبد القادر بن عبد الله الدّحاوي حيث جاء في هذه الإجازة:" العالم النّجيب الحاذق الأديب الزّكي اللبيب الآخذ من كل علم نصيب السّيد عبد القادر بن عبد الله الرّاشدي المعسكري أحد أولاد الشّيخ البركة المزارة أبي زيد السّيد عبد الرّحمن المشهور بدحو "(انظر التّعليق رقم 01).

ولا يعلم شيء عن حياته العائليّة فلا يعلم من هي زوجته أو أزواجه وعدد أولاده ولا مصيرهم بعده، وإن كان أشار صاحب كتاب خطط مشرق المغرب أنّ من أربيته (انظر تعليق رقم 02) الذين هاجروا إلي مدينة وجدّة السّيد محمّد بن عبد الله الدّحاوي وهذا سنة 1311هـ/ في حدود 1893م، هذا الأخير الذي حلته بعض الوثائق والتّقاييد بـ"الفقيه الأرضي الشّريف المرتضى"، توفي ما بين 1344هـ-1345هـ/ 1925م-1926م، تاركا أربعة

أولاد وهم السّيد محمّد الملقب ابن المصطفى والسّيد محمّد الملقب خيرالدّين والسّيد دح والسّيدة خيرة (المقري،2006: 64).

كما لا يعرف مساره التّعليمي، ولا مشايخه الذين حفظ عليهم القرآن وأخذ عنهم العلّم، ولا شك أنّهم علماء أسرته سيدي دحو عملا بالعرف السّائد آنذاك أنّ الولد يتعلّم ويحفظ القرآن ومبادئ الدّين على أقرب مقربيه والدّه أو أحد أقاربه، ثم يتدرج في التّعليم من خلال التّنقل إلى الحواضر العلّميّة الموجودة آنذاك.

هذا التّعتيم منطلقه الشّيخ محمّد المصطفى الدّحاوي نفسه ففي كل كتاباته المتوفرة لدينا لم يذكر شيئا عن نفسه، ولا عن تكوينه، ولا عن نشأته، واكتفى بذكر اسمه محمّد المصطفى بن عبد الله الدّحاوي.

2- شيوخه وطلبته

أ-شيوخه: لا شك أنّ الشّيخ محمّد المصطفى الدّحاوي تتلمذ على مشايخ منطقته وربّما رحل كما هي العادة إلى الأقطار المجاورة كمازونة، وفاس، والقرويين، والأزهر الشّريف وبلاد الحجّاز، طلبا للزيادة في العلّم، لكن بالرّجوع إلى المصادر والمراجع المتاحة حول شخصيته يمكن التّعرف على اسم ثلاثة شيوخ من أشياخه فقط وهم:

الشّيخ المكي بن عيسى: لا تُعلم ترجمة لهذا الشّيخ غيرما ذكره تلميذه محمّد المصطفى في رحلته، فقد ذكره غيرما مرّة بأوصاف تنم عن علمه الجم، وتفوقه، وتميزه بين أقرانه، ومن ذلك وصفه له بقوله: " شيخنا الفقيه، الفرضي، النّحوي، اللغوي الشّاعر، العروضي، آخر قضاة العدل أبو عبد الله السّيد المكي بن عيسى-"(الدّحاوي،الرّحلة:22)، ووصفه مرّة ثانيّة فقال:" شيخنا العلاّمة، الأبر الألمعي، الأغر، من بعدله في الأحكام يتأسى سيدي الحاج المكي بن عيسى-"(الدّحاوي،الرّحلة:62)، ووصفه مرة أخرى فقال:" شيخنا العلاّمة، الفقيه النّحوي، الشّاعر، العدل النّزيه، قاضي المحلة المنصورة، ومجدّد نظام الشّريعة المبرورة من بأدبه يساغ الشّجا، ويجلي الأسى، أبو عبد الله السّيد المكي بن عيسى... "(الدّحاوي،الرّحلة:140).

لا تعلم طبيعة العلّوم التي أخذها الشّيخ محمّد المصطفى عن شيخه أبي عبد الله المكي بن عيسى، لكن من خلال ما حلاه به فأكيد أنّه حَصَّلَ منه علم الفقه، الفرائض وعلم اللغة كالنّحو وغيره.

ودائما من خلال ما أورده الشّيخ محمّد المصطفى، يفهم أنّ الشّيخ المكي ممّن حجّ بيت الله الحرام، والأكيد أنّه التّقى بعلماء الأمّة وأخذ عنهم وأخذوا عنه، كما يفهم أنّ الشّيخ المكي كان من المقربين من الباي محمّد الكبير، وأنّه كان رسوله إلى الطّلبة برباط وهران، وهذا دليل على المكانة التي كان يحظى بها هذا الشّيخ في بلاط الباي.

يظهر أنّ الشّيخ المكي بن عيسى ممن تولوا منصب القضاء والإفتاء بقلعة بني راشد وهذا ما يصرّح به الشّيخ نفسه حين شهد على صحّة نسب سيدي دحو، حيث ختم تقيده بتحديد وظيفته، وهي قاضي القلعة، ونص التّقييد هو: "الذي تلقيناه من العدول وغيرهم، وأنّ السّيد عبد الرّحمن بن علي بن عثمان، هو المعبّر عنه أوقتنا بسيدي دح، وأنّه شريف النّسب، حتى كدت أن أشهد شهادة بت وتحقيق بأنّ شهادة السّماع قسمان لا تفيد التّحقيق وتفيده، وهذا من الثّاني فمن أراد القطع بها فله ذلك كما هو مبسوط في موضعه، وكتب مقيدا الشّهادة شهادته محمّد المكي بن عيسى-قاضى قلعة بني راشد وفقه الله وأيده لما يحبه ويرضاه آمين" (انظر التّعليق رقم 03)، كما يفهم من هذا النّص أنّ الشّيخ ممن كانت كلمتهم مسموعة، وشهادتهم معتبرة موزونة، وأنّه تربطه علاقات وثيقة مع أسرة تلميذه الشّيخ محمّد المصطفى الدّحاوي.

الشّيخ أبو طالب المازوني: هو العالم المعمّر أبو طالب محمّد بن علي بن عبد الرّحمن بن محمّد المعروف بابن شارف بن احمد بن علي بن عبد العزيز بن علي بمنصور بن محمّد بن عمرو البلداوي وجدهم اسمه محمّد بن عبد الله بن موسى بن مسعود بن يحي بن سليمان بن إبراهيم بن عيسى-بن محمّد بن احمد بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السّبط (الكتاني، الرّحلة:105).

إن كان فيه اتفاق حول تاريخ وفاته سنة 1233هـ، إلاّ أنّ تاريخ ميلاده مختلف فيه فالبعض أشار أنّه عاش أكثر من مئة سنة (الكتاني ج، ب.س:67)، وقيل مئة وثلاثين سنة (الكتاني ع،1986: 507)، والبعض جزم أنّه عاش مائة وثلاثين سنة (بحري،2013:

234)، في حين ذهب بعض الباحثين أنّه ولد أواخر المائة الحاديّة عشر هجري (بحري،2013: 241)، وبالتّالي يصعب تحديد تاريخ ميلاده.

تعلّم الشّيخ أبو طالب مبادئ العلّم بمسقط رأسه، وحفظ القرآن الكريم على يد والدّه العلّامة على بن عبد الرّحمن، كما أخذ علم الحديث عن كثير من علماء عصره وأشهرهم شيخ الجماعة بالجزائر القاضي المفتي أبي عبد الله محمّد بن جعدون والشّيخ بن علي الشّريف الزّواوي (بحري،2013: 242).

تصدّى للتدريس بمازونة بعد وفاة والدّه سنة 1189هـ طيلة أربع وأربعين سنة (الكتاني ع، الرّحلة:106)، حيث كان يدرس طلبته مختصر خليل شرح الخرشي والزّرقاني والحديث الشّريف.

ولعلّ اشتغال الشّيخ أبو طالب بالتّدريس جعله غير معروف بالتّأليف (سعد الله،2011: 53)،حيث من مؤلّفاته حاشيته على الخرشي، الذي يقع في مجلدين سماه درة الحواشي في حل ألفاظ الخرشي، جاء في بدايته: "يقول العبد الفقير المضطر إلى نعمة ربه القدير محمّد بن علي بن عبد الرّحمن بن محمّد المعروف بالشّارف بن احمد بن علي بن عبد العزيز المازوني منشئًا ودارا البلداوي نسبا، لما كان علم الفقه أفضل العلّوم بعد كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ به تعرف الأحكام ويتميّز الحلال من الحرام وقد صنف فيه الأئمة الأعلام .... طلب مني بعض الإخوان في أنّ أضع عليه حاشيّة تبين مشكلاته فأجبتهم لذلك بعد الاستخارة لما قدرت عليه وربّما تكلمت مع غيره ممّن شرح وقصدت بذلك وجه الله العظيم"(الكتاني ع الرّحلة:105)، كما ينسب له مؤلّف في علم التّوحيد (بحري 243:2013).

وصفه تلميذه محمّد المصطفى الدّحاوي فقال: "شيخنا الفقيه الصّالح، المدرس النّاصح، الصّادق الأماني، سيدي محمّد بن أبي طالب المازوني "(الدّحاوي، الرّحلة:111) ووصفه مرّة أخرى فقال: "فقيه، صالح، مدرس، ناصح، ملازم لدرس مختصر الإمام خليل في كل زمان ترد حياضه الطّالبون من كل مكان، وحصل به الانتفاع، وسار فضله في هذه الإيالة وفي جميع الرّباع، قدح زناد علمه، فأنار حلك الجهالة، وشحنت فكر فهمه ففتح أقفاله، فما من طالب علم في هذه النّاحيّة إلاّ حضر درسه، ودخل مجلسه واقتبس قبسه، فلا يختلف في فضله اثنان، ولا ينكر نفعه إنسان "(الدّحاوي،الرّحلة:164)

ووصفة مرّة ثالثّة فقال:" الفقيه الصّالح المدرّس النّاجح أبو المواهب شيخنا سيدي محمّد بن أبي طالب المازوني "(الدّحاوي، الرّحلة:127).

من النّقاط الّتي أثارها الشّيخ محمّد المصطفى عند ترجمة شيخه الرّد على المعترضين على الشّيخ أبي طالب حال عقده لسوقه المشهور وهو حالة روحيّة تصيب الشّيخ فيجتمع حوله طلبته وعامّة النّاس وكل يسأله حاجته فيدعوا الله أن تقضى.كل الحاجات مشيرا أنّ : "كثيرا من الفقهاء ينكر عليه هذا الحال ولكن لا يقدر أن يواجهه بسوق مقال إجلالا له وهيبة ويبث ذلك في الغيبة " (الدّحاوي، الرّحلة:164)، فتصدّى محمّد المصطفى للدفاع عن شيخه المازوني من باب الوفاء بالعهد قائلا:" وأنا عبد الله تعالى ممّن انتفع بقراءته واحتمى بحمايته فحق على أنّ أوجه أقواله واستشهد له بما يوضّح إشكاله " (الدّحاوي، الرّحلة:164).

لقد لعب الشّيخ أبو طالب المازوني دورا هاما في استتباب الأمن، والتّفاهم، وتناغم جيش الطّلبة برباط وهران، وإليه كان المفزع في حال نشوب خلاف، أو بوادر شقاق ويذكر محمّد المصطفى أنّ الشّيخ أبو طالب المازوني بقي:" نحو أربعة أيّام بلياليها لا يفترعن البكاء ودموعه تسيل على النّحور، فإذا لامه أحد في فرط البكاء وإنهمال أنوائه، يقول: كيف لا أبكي وطاعتنا رجعت معصيّة، حتى ترانا نحاول قتل النّفوس بغيرحق، وهذا أعظم بليّة"، كما كان الشّيخ يعقد مجالسّ للذكر والدّعاء من أجل فتح وهران، يقول محمّد المصطفى الدّحاوي: "وفي أواسط هذا الشّهر - جمادي الثّاني - اجتمعنا عند الشّيخ محمّد أبي طالب المذكور، وقلنا له: قد طال علينا هذا الرّباط فادع لنا الله تعالى أن ييسّر الأمور، وما أشرت علينا به نقتفيه، ودبر علينا في هذا الثّغر وكيف العمل فيه..."(الدّحاوي، الرّحلة:166).

لا تعلم نوعيّة العلّوم الّتي أخذها محمّد المصطفى الدّحاوي عن شيخ أبي طالب المازوني، لكنّ الأكيد أنّه أخذ عنه الفقه حيث المشهور عن الشّيخ أنّه كان يدرس مختصر خليل.

الشّيخ أبو راس النّاصر المعسكري: كحال من سبقه لا يعلم متى تتلمذ الشّيخ محمّد المصطفى على الشّيخ أبي راس النّاصر، وما هي العلّوم التي أخذها عنه وإن كانت لا تخرج في العمومة عن علوم الفقه واللغة، لكن الأكيد أنّ الشّيخ محمّد المصطفى مدح

شيخه ومن ذلك ما نقله الشّيخ أبو راس حين قال: " وممّا مَدَح به العلّامة الأبر الجهبيذ الأشهر حائز رئاسة وهران وأم عسكر، الأستاذ النّحرير، ذو الإتقان والتّحرير، المؤيّد بالله أبو عبد الله سيدي محمّد المصطفى بن عبد الله هذا التّأليف ومؤلّفه، وهو شيخه أنجب الأكياس، ذو النّور فوق نور النّبراس الشّيخ محمّد أبو راس، أمننا وإياه من الشّيطان الماكر، الغادر الوسواس قدس الله روحه وأسكنه دار الفراديس أعلى بحبوحة وهو قوله:

لَيتَ شِعرِي هَل أَرَى مِن نَصِيرٍ ... مُنصِفٍ لِمَجدِ الكِرَامِ الأَفَاضِلِ
يُطنِبُ القَولَ فِي اِمتِدَّاحِ فَقِيهٍ ... لَاحَ نُورُهُ فِي سَمَاءِ الفَوَاضِلِ
أَبَا رَاسٍ لِلعُلَمَاءَ أَنتَ عِمَادٌ ... أَنتَ نَجمُ الْهدَي شِفَاءُ العَرَاقِلِ
لَم تَزَل عَاضِدَ الفِقهِ مُنذُ زَمَانٍ ... كَكَوكَبِ سَعدٍ مِنهُ حِينَ تُنَاضِلُ
فَثَنَيتَ عِنَانَ نُصحِكَ لِلنَّحوِ ... وَفِيهِ شَفَيتَ كُلَ غَلَائِلِ
وَرَقَيتَ مِنَ الَحدِيثِ مَنَارًا ... قَصُرَت عَنهُ هِمَةُ المُتَطَاوِلِ
فَإنتَضَيتَ يَمَانِيًا كَوَمِيضٍ ... فَلَقَ الصُبحَ عَن شُرُوقِ الدَّلَائِلِ
إن هَذَا لَشَيءٌ مِنكَ عُجَابٌ ... فَكَيفَ رَكِبتَ دَلِيلَ الدَلَائِلِ
فَلَازِلتَ مِن الخَلِيقَةِ تُدعَي ... قَوَّالَ حَقٍ دَامِغًا لِلأَبَاطِيلِ

(النّاصر،72:1990-73)

3-مكانته العلّميّة وطلبته: لقد بلغ الشّيخ محمّد المصطفى مكانة علميّة أهلته ليكون محل تقدير كل من السّلطة وأقرانه من العلّماء، ولا أدل على ذلك من تقريب الباي محمّد الكبير له، وما قاله الشّيخ أبو راس النّاصر في حقه حين وصفه فقال: "كبير العلّماء العالمين والجهابذة الفاضلين الذي لا يتحرّك إلاّ بقلب حاضر ولسان ذاخر عظيم القدر رفيع الذّكر العالم الأصفى والتّقي لأضفي..." (النّاصر،1990: 72)، ووصفه مرّة أخرى فقال: "وبالجملة إنّي لم أر من يخلفه في الغالب، فهو خاتمة ذوي التّحقيق والتّدقيق يعجز عن أوصافه الحميدة كل نطيق مع عقل وديانة وعفاف وكفاف وصيانة "(النّاصر،1990: 72)، ووصفه الآغا بن عودة المازاري فقال: "العالم الجليل المتضمن الجميل، العدل الماجد، البارع الفارد، الكاتب الفاخر، النّاظم النّاثر، ذو المعاني

والإعراب، والفنون والآداب، والكرم والفضائل، والأخلاق والشّمائل الجامع بين الحسب والنّسب الأصيل والمعارف والتّحصيل الشّريف الجميل، الذي هو أنجب من كل من حثّوا في طلب العلّم ولحّوا السّيد مصطفى بن عبد الله بن دحّو، مؤلّف فتح وهران وجامع الجواهر الحسان" (المازاري،2007: 249)، كما وصفه صاحب القول الأعم الشّيخ الطّيب بن المختار فقال: "الدّراكة الأرضي الإمام المرتضى-السّيد المصطفى بن عبد الله" (بن بكار،1961: 332).

ونظرا لهذه المكانة العلّميّة استطاع الشّيخ محمّد المصطفى أن يستقطب الطّلبة الذين وصفهم الشّيخ أبو راس بالنّجباء (النّاصر،1990: 72)، لكن لم تشر المصادر إلى أسماء طلبته.

وأهم إشارة على مكانته العلّميّة هو تأثير الشّيخ في الطّلبة المشاركين في فتح وهران وتمكنه من جعل نصف هؤلاء الطّلبة يميلون إليه ويساندونه، لما وقع له خلاف مع بعض أقاربه، حيث أشار ابن سحنون أنّه خلال حرب فتح وهران تم إبعاد الشّيخ محمّد المصطفى عن الرّباط وأعيد إلى معسكر، وسبب هذا الإبعاد هو خلاف وقع له داخل الرّباط مع ابن عمه، لم يصرّح ابن سحنون باسمه، أدى هذا الخلاف إلى انقسام الطّلبة بين الشّيخ محمّد المصطفى وابن عمّه الأمر الذي كاد يؤدّي إلى تشتيت صفوف الطّلبة وصار كل واحد منهما يراسل الباي ويشكو له تصرفات خصمه، فقرّر الباي إبعادهما عن الرّباط، ولم يعد الشّيخ محمّد المصطفى إلاّ بعد تشفع وتوسط الطّلبة لصالحه لدى الباي بطلب من أخيه (الرّاشدي،2013: 252-253).

4-وظائفه ومشاركاته في أحداث عصره ووفاته:

أ وظائفه ومشاركته في أحداث عصره: كحال مختلف مراحل حياته فإنّ الوظائف التي تولاّها السّيد محمّد المصطفى تبقى مجهولة، إلاّ ما ورد عنه في بعض مؤلّفاته من أنّه كان يشغل منصب مفتي وقاضي محلة الباي محمّد الكبير يتلمسان في حدود سنة 1189هـ/1775م (الدّحاوي، الاكتفا:06)، وأنّ الباي كان يستشيره ويطلب منه إصدار الفتاوى في النّوازل التي تعرض عليه، كما هو الحال عند تأليفه لكتاب الاكتفاء، يقول في هذا الصّدد: "فبعث إلي رسوله في الحين أن أجب أمير المؤمنين فأسرعت لإجابته وبادرت لامتثال إشارته، فحين خيمة برسومه ووجدت روح نسيمه

خاطبني ببديع كلامه وفصيح نظامه، أنّه يؤمل مني تأليف كتاب مختصر يحتوي على أنقال صحيحة في أخذ الجوائز من ذوي الملك والأمراء...."(الدّحاوي، الإكتفا:09)، ثم من هذا التّاريخ وإلى غاية سنة 1205هـ/1790-1791م، وتحرك جيوش الفتح نحو وهران لم تشر المصادر إلى مصير الشّيخ محمّد المصطفى.

وخلال هذا الحدث الهام-فتح وهران-عين من طرف الباي دائما ككاتب ومدون لمسار الفتح، فكان كتابه الرّحلة القمريّة ليعين بعد فتحها قاضيا بها إلى غاية وفاته بداء الطّاعون.

أمّا عن مشاركاته في مختلف الحروب التي خاضها الباي محمّد فلا شك أنّه كان من بين المستجيبين لنداء الجهاد، ومن ذلك مشاركته في جيش الباي محمّد الكبير من أجل رد الهجمات الإسپانيّة على مدينة الجزائر هذا الجيش الذي انطلق من مدينة تلمسان في 14 شعبان 1198هـ/9أكتوبر 1775م، وقد تحدّث الشّيخ عن تحرّك الجيش نحو مدينة الجزائر قائلا: "فسار بنا يقدّم عسكره وهو الشّجاع المقدام الأسد الضّرغام قاصدا تجاه العدو..."(الدّحاوي، الإكتفا:12)، بقي محمّد المصطفى مع جيش الباي من يوم 14 شعبان إلى غاية يوم 7 رمضان وهو تاريخ عودة الجيش إلى مدينة معسكر يقول الشّيخ:" فكان يوم 7 رمضان يوم عيد وحق ذاك ليوم الاثنين إذ طالعه سعيد ركبنا عشيته المطايا مغربين وبقهر العدو والإياب فرحين..."(الدّحاوي، الإكتفا:12).

أمّا عن أهم حدث شارك فيه الشّيخ محمّد المصطفى هو فتح وهران والذي كما سلف يعتبر هو المدون الرّسمي لأحداثه، انخرط الشّيخ في صفوف جيش الطّلبة لكن لم يلتحق به منذ أوّل يوم لانطلاقه الذي كان في بداية شهر ربيع الثّاني 1205هـ/07 ديسمبر 1790م، حيث يقول : "ولمّا استهلّ هذا الشّهر وبان صبح ليله وافترأذن سيدنا الأمير أيده الله بالعون والتيسير أن ينفر الطّلبة لرباط وهران..."(الدّحاوي،الرّحلة:153)، إلاّ أنّه التّحق به يوم 8 جمادى الأولى 1205هـ الموافق لـ 12 جانفي1791م(انظر التّعليق رقم 04)، يقول عن التّحاقه بالرّباط: "وفي ثامنه وهو اليوم الأوّل من السّنة العجميّة قدم على الطّلبة مقيد هذه الرّحلة القمريّة من حضرة سيدنا الأمير..."(الدّحاوي، الرّحلة:143)، تزامن قدومه مع الاحتفال بالنّاير، فكان محملا بأثقال من التين والجوز والزّبيب والتّمر لفائدة الطّلبة، لا يعلم سبب تأخر التّحاق الشّيخ بجيش الطّلبة، لكنّ

الأكيد أنّ التّحاقه بهم تزامن مع غياب شيخ الطّلبة الشّيخ محمّد بن عبد الله الجلالي الذي كان في أم عسكر.

ويفهم من خلال إحدى رسائل الباي إلى الطّلبة، أنّه عين الشّيخ محمّد المصطفى من بين المسئولين عليهم، هذه الرّسالة المؤرخة بيوم 28 جمادي الأولى 1205هـ/ 01 فبراير 1791م، نصّها كما يلي: "الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله السّيد محمّد بن أبي طالب والسّيد المصطفى بن عبد الله والسّيد محمّد بن أبي سيف وكافة الطّلبة خصوصا الشّيوخ السّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه العميم وتحياته وبعد: فترونا بعثنا لكم سي عبد القادر بن البوري وبيده الدّراهم اقسموها على الطّلبة واجعلوا خمسة وعشرين طالبا في القسمة، وكل قسمة أعطوها خمسة وعشرين ريالا بوجوهها مئونة شهرهم، هذا من غير القمح، وقد أمرنا لكل قسمة حملا من القمح نفقة شهر، وما أشرتم لنا به في كتابكم على طحن القمح فاليوم أمر ذلك لكم، فاعملوا شطارتكم في ذلك، ونحن قد بلغنا لكم نفقة الشّهر، فاحتفظوا ما قدرتم، ومن فرط فلا علينا فيه، وما فضل من الدّراهم يحفظه الشّيخ المصطفى بن عبد الله تحت يده، حتى يقدم الشّيخ محمّد بن عبد الله يضيفهم لما تحت يده سابقا حتى يصرفهم إنّ شاء الله هذا ما منا عليكم، والله يصلح حالنّا وحالكم بمنه آمين، وكتب مسلما عليكم وطالبا صالح الدّعاء منكم بأمر السّيد محمّد باي وفقه الله تعالى بمنه آمين" (الدّحاوي،الرّحلة:149)، يفهم من نص هذه الرّسالة أنّ الشّيخ محمّد المصطفى كان متوليًا للشؤون الماليّة للرباط في غياب الشّيخ محمّد بن عبد الله الجلالي، بل واستمر الأمر حتى بمحضر هذا الأخير، حيث تكلّف الشّيخ المصطفى بأعباء تموين رباط وهران بما يحتاجه من المؤن، خاصّة اللحم من الأسواق المجاورة، وهذا عملا بتوجيهات الباي حيث أمرهم في أحدى رسائله فقال:" لا بد أنّ تأتوا بجزارين من الأسواق القريبة لكم وادفعوا لهم ما يحتاجونه من الدّراهم التي تحت يدكم، يجلبون بها الأنعام ويذبحونها بين ظهرانيكم، لينتفع الطّلبة بشراء اللحم ويتيسر عليهم ما عسر عليهم..." (الدّحاوي، الرّحلة:160) فاستجاب لهذا الأمر الشّيخ محمّد المصطفى قال : "فركبت حينئذ أنا عبد الله تعالى في الحين، إذ وافق دلك سوق الأربعاء عند قبيلة الدّوائر..."، وتعاقد الشّيخ محمّد المصطفى مع مجموعة من الجزارين حتى يأتوا باللحم إلى رباط الطّلبة" (الدّحاوي،الرّحلة:160)، وعلى هامش حضور الشّيخ هذا

السّوق عقد مجلس قضاء بطلب من الدّوائر للنظر في الخصومات والظّلامات، قال: "ففصلت بين الجميع بما أراني الله" (الدّحاوي،الرّحلة:161).

ومن الأمور المهمة التي تولاها الشّيخ محمّد المصطفى هو مراسلة الباي محمّد الكبير وإطلاعه على مجريات الأحداث، أو طلب المزيد من الإمدادات، وقد ضمن الرّحلة القمريّة جملة من هذه الرّسائل.

ليعين بعد فتح وهران قاضيا عليها، حيث وصفه الشّيخ أبو راس فقال: "حائز الرّياسة بوهران وأم عسكر" (النّاصر،1990: 73) واستمر في هذه الوظيفة إلى غاية وفاته.

ب- وفاة الشّيخ محمّد المصطفى: لعلّ الاستثناء الوحيد في التّأريخ لحياة الشّيخ محمّد المصطفى هو تعرض بعض المصادر لذكر وفاته على سبيل الإجمال وليس بشكل دقيق فتشير المصادر الغربيّة كمسلم بن عبد القادر والزّياني، وينقل عنهما المازاري، أنّه توفّي إثر الطّاعون الذي أصاب بايلك الغرب والمعروف بطاعون عثمان، هذا الطّاعون الذي تختلف المصادر المحليّة في تحديد تاريخ وقوعه فيذكر الشّيخ العربي المشرفي أنّه وقع سنة 1213هـ/1799-1800م(فرقان،2014:181)، في حين أنّ المازاري وكل من نقل عنهم لم يحددوا تاريخ وقوعه بشكل دقيق واكتفى بالقول انّه وقع زمن الباي عثمان (المازاري،2007:301)، أمّا الشّيخ أبو راس وهو المؤرخ فقد صرح أنّه توفي شابا دون أن يحدّد سنة وفاته حيث قال:" حتى توفي في حالة الشّبيبة" (النّاصر،1990: 72).

وقد علّل صاحب كتاب إتمام الوطر بأنّ سبب موت الشّيخ محمّد المصطفى بداء الشّهدة على حد تعبيره وهو داء الطّاعون، موقفه من الشّيخ أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الزّقاي التّلمساني الذي اختلف معه في مسالة فقهيّة تتمحور حول حكم أخذ الأعطيات والجوائز من الملوك، وأنّ الشّيخ محمّد المصطفى كان يُوغِرُ قلب الباي عثمان ضد الشّيخ الزّقاي، ويشوه صورته لديه، فعقد الباي مجلس مناظرة انتصر فيه الشّيخ الزّقاي على خصومه، وعلى حد تعبير صاحب الكتاب دائما، فإنّ الله سبحانه وتعالى انتقم من خصومه "لاسيما القاضي مصطفى بن دحو الذي جهل قدره وتعدى طوره وبسط في الإذاية باعه وشبره وتولى من ذلك الأمر كبره فقد حاق به سيء مكره وعاجله الله بقهره فأخذه داء الشّهدة وبيع بيع البراءة بغير عهدة فلم يلبث إلا يسرا من الأيام حتى تجرع كأس الحِمام بعد مقاساة الآلام العظام..." (الزّقاي،2011: 65-66)، هذا النّص

وعلى ما تضمنه من كلام يرفضه العقل قبل الدّين، فمهما بلغت الخلافات وجب على المسلم أن يتعفّف عن الخوض في أعراض النّاس والتّشفي في موتهم، فإن كان سبب موت الشّيخ محمّد المصطفى بداء الطّاعون هو الخلاف الذي وقع بينه وبين الشّيخ الزّقاي، فما ذنب كل أولئك الذين ماتوا بسبب هذا الطّاعون، خاصّة وأنّ مصادرنا تشير أنّ عدد كبير من النّاس قد ماتوا من جرائه، حيث تشير أنّ هذا الطّاعون عمّ الجزائر كلّها وكان يموت بسببه بمدينة الجزائر وحدها 300 شخص يوميا، ثم اجتاح هذا الطّاعون المغرب الأقصى فنجم عنه موت حوالي ثلث سكان المغرب (فرقان،2014: 181).

نسبة المخطوط للشيخ محمّد المصطفى: لا شكّ في نسبة مخطوط "تلخيص الجمان من حياة الحيوان "للشيخ محمّد المصطفى الدّحاوي، فقد ورد اسمه فيه صراحة حين قال: "على أنّ جامعه الفقير إلى مولاه الغني به عمن محمّد المصطفى ابن عبد الله ابن عبد الرّحمن المضاف في النّسب لمرضعة جدّه زرفة أمنه الله"، وتشابه أسلوبه خاصّة في المقدّمة مع أسلوبه في كتابه الرّحلة القمريّة.

ولعلّ سبب عدم ذكره ضمن مؤلّفات الشّيخ محمّد المصطفى كونه آخر ما ألّف الشّيخ فلم يحظ هذا العمل بنفس الشّهرة التي حظي بها مؤلّفه الرّحلة القمريّة، وكذلك العزلة والتّهميش والإبعاد الذي تعرّض له الشّيخ في الفترة الأخيرة من حكم الباي محمّد الكبير جعلت المصادر المحليّة لا تشير لا من قريب ولا من بعيد لهذا المؤلّف، إضافة إلى الأوضاع التي عرفتها المنطقة من عزل الباي عثمان، هذا الأخير الذي شاهدنا كيف أنّ المصادر المحليّة الغربيّة وصفته بأنّه مهمل لشؤون الحكم مشتغلا باللهو، وكون الشّيخ محمّد المصطفى من مقربيه فلا شك أنّه تأثر بهذه الأحداث، إضافة إلى حالة اللاستقرار التي سوف تعرفها الجزائر عموما وبايلك الغرب بشكل خاص في ظل الثّورات الشّعبيّة العارمة التي سوف تقوم ضد الوجود التّركي العثماني بالمنطقة.

وكذلك من أسباب عدم شيوع ذكر هذا الكتاب حتى عند المؤرّخين والباحثين عنوانه فقد يتبادر إلى الذّهن أنّه عبارة عن كتاب أدبي يلخّص كتاب حياة الحيوان ولا علاقة له ببايلك الغرب ولا السّلطة المحليّة ولا يعكس علاقة العلّماء بالسّلطة.

فكل هذه العوامل جعلت هذا الكتاب مجهولا لدى جل الباحثين رغم أهميته التّاريخيّة والطّبيّة.

1-2 تاريخ تدوينه: أمّا عن تاريخ تدوينه فقد صرح أنّه كان بتاريخ أوائل رمضان 1213هـ/ 05 فبراير 1799م أي في بدايات تولي عثمان بايا على الغرب بعد وفاة والدّه وهو بهذا يعتبر أخر عمل أنجزه الشّيخ محمّد المصطفى حيث توفي سنة 1215هـ، وإنّ كنا نحتمل وجود أعمال أخرى له قد تكون أشعارًا أو مؤلّفات أو غيرها من أنواع التّدوين لكن لم تصلنا للاعتبارات السّابقة.

1-3أسباب تأليفه: من خلال ما ورد في مقدّمة مخطوط تلخيص الجمان يمكن أن نستنتج على الأقل سببين ألّف لأجلها هذا الكتاب وهما:

أ-السّبب المباشر: ويتمثل في طلب الباي عثمان من الشّيخ محمّد المصطفى تلخيص كتاب حياة الحيوان للدميري حيث كان يرى الشّيخ المصطفى أنّ الامتثال لأمر الباي هو امتثال لأمر الله يقول الشّيخ محمّد المصطفى: "فأشار علي أعز الله أنصاره ورفع درجته وأعلا مناره من إشارته تحمل بالرّؤوس وكلمته تكتب في التّواريخ والطّروس بل إشارته غنم وأوامره حكم و امتثالها فرض وطاعته من طاعة الله بعض" (الدّحاوي الجمان:04) فهذا النّص واضح في أنّ تلخيص الجمان ألّف بأمر من الباي عثمان.

ب-السّبب الغير مباشر: ويتمثّل في حالة النّفي والإبعاد السّياسي إن صحّ التّعبير الذي تعرض له الشّيخ محمّد المصطفى قبيل وفاة الباي محمّد الكبير ما عاد عليه بالضّرر فكان يتحين الفرص من أجل العودة إلى بلاط الحكم والتّقرب من خليفة الباي محمّد يقول واصفا حاله: "فقد عَضَت عَلَي الأيام بالنّواجذ وعاملتني معاملة السّاخط الواجد كأنّ لها ثأرا على سلفي أو شوقا بها كلفي، إلى أنّ تقلّص عني كل ظل وارف وتنكرت لي وجوه المعارف، واشتدّت السّبل والمذاهب، وعز المطلوب وضعف الطّالب" (الدّحاوي الجمان:02)، ويعلّل الشّيخ محمّد المصطفى حاله هذه بابتعاده عن خدمة الباي الجديد عثمان فيقول: "وسبب ذلك بعدي عن خدمة فريد الدّهر وبكر عطارد وفرقد الملك الذي شهد بفضله الحميم والحاسد" (الدّحاوي، الجمان:02).

فكان طلب الباي عثمان من الشّيخ مصطفى تلخيص كتاب الحيوان فرصة لعودته إلى سابق عهده وتقربه من سلطان زمانه يقول:" إلى أن تبسّمت في وجه رجائي المطالب وتوجّهت تلقاء مدين المآرب وانقشعت سحائب ذلك الغيم وغاضت غدران ذلك الضّيم"(الدّحاوي، الجمان:03).

أمّا السّبب الثّالثّ لتأليف هذا الكتاب وهو الوقوف على الفوائد الطّبيّة الواردة في كتاب حياة الحيوان للدميري وما فيه من رقى نافعة وحيل طبيّة مفيدة يقول الشّيخ محمّد المصطفى: "أنّ أجمع له خواص الحيوان من كتاب / / حياة الحيوان للحافظ الدّميري مع ما استطرده خلالها من الأدعيّة المأثورة والرّقى المرويّة المبرورة على وجه الاختصار لا على معنى الاقتصار بحيث يجئ مجموعا خاليا من الملل والإسهاب عاريا من الإخلال والإطناب" (الدّحاوي الجمان:04)، ويقول: "وغير خفي على ذي العقل السّليم والطّبع القويم أنّ العلّوم قسمان علم الأديان وعلم الأبدان والأوّل مشيّد الأركان في كل أوان وثابت البنيان بحمد الله في كل زمان، والثّاني قد نبذ ظهريا وجعل نسيا منسيا فأراد سيدنا الإمام أدام الله وجوده موفقا على الإسلام أن يشارك العلّماء بهذا الوشل" (الدّحاوي،الجمان:07)، فيظهر من هذا النّص أنّ من أسباب تأليف الشّيخ محمّد المصطفى لهذا التّلخيص هو تراجع قيمة علم الطّب وعدم الاهتمام به ومحاولته تدارك هذا النّقص.

أهميّة مخطوط تلخيص الجمان من حياة الحيوان:

2-1 موضوع المخطوط وأهميته:

أ موضوع المخطوط: إن كان كتاب حياة الحيوان للدميري يمكن اعتباره كتابا فقهيا حديثيا تاريخيا طبيا، فإنّ تلخيص الجمان لمحمّد المصطفى هو كتاب طبي بامتياز، حيث قام الشّيخ بحذف كل ما له علاقة بالتّاريخ أو الفقه أو الحديث واحتفظ لنا فقط بخواص ومنافع أجزاء الحيوانات، وبعض الإشارات التّاريخيّة التي أوردها كما قال من باب التّبرك ومن ذلك إيراده ترجمة للتابعي الشّهير أويس القرني، وقصّة عن الشّيخ عبد القادر الجيلاني.

يعتبر كتاب تلخيص الجمان دليل طبي يمكن صاحبه من التّعرف على بعض الأمراض المنتشرة في المنطقة وسبل مداواتها بطريقتين، طريقة عضويّة تتمثل في استعمال أجزاء الحيوانات والانتفاع من خواصها، وطريقة روحيّة تتمثّل في الرّقيّة بالآيات القرآنيّة.

ب-أهمّيته: لمخطوط تلخيص الجمان من حياة الحيوان أهمّيات عديدة يمكن أن نلخّصها فيما يلي:

1- يعتبر هذا المخطوط الكتاب الوحيد الذي أنجز في عهد الباي عثمان بن محمّد والذي ضمنه صاحبه ترجمة لهذا الباي، هذه التّرجمة وإن لم تستوف عناصرها الأساسيّة من ذكر تاريخ مولده وتعينه بايا وأعماله، وغلب عليها الطّابع الأدبي، إلاّ أنّها تبقي ترجمة فريدة في بابها تعطينا صورة مغايرة تماما عمّا ورد عن هذا الباي في باقي المصادر المحليّة.

2 -يعكس هذا المخطوط صورة الواقع الثّقافي خلال عهد الباي عثمان، والذي يمكن القول أنّه امتداد واستمراريّة لما بدأه والدّه الباي محمّد الكبير، حيث يلاحظ اهتمام الباي عثمان بالكتب مطالعة ومناقشة مع علماء بلاطه، وطلبه منهم تلخيص هذه الكتب فاتحا لهم خزانة كتبه العامرة حتى يستفيدوا منها وينتفعوا بما تحويه من النّفائس التي قد يتعذّر عليهم الحصول عليها.

3-يمثّل هذا المخطوط تتمّة مشروع الباي محمّد الكبير الصّحي حيث أنّ هذا الأخير عرف باهتمامه بهذا النّوع من التّأليف ومن ذلك أمره للشيخ ابن سحنون بجمع طب القاموس فقام هذا الأخير بامتثال أمر الباي وزاد على ما جاء في القاموس كلام الأطباء، ما أعجب الباي محمّد وكافأ الشّيخ ابن سحنون بخمسين سلطاني (ابن سحنون،2013: 155).

3-يعتبر أخر مؤلّف أنجزه الشّيخ محمّد المصطفى الدّحاوي أبان فيه عن جانب مهم من شخصيته العلّميّة وهو اهتمامه بالطّب هذا الاهتمام الذي تجسد قبل ذلك في كتابه الرّحلة القمريّة حيث روى لنا مأساة بعض الطّلبة الذين أصيبوا في بعض المعارك مع شبه طبيب الذي يصفه الشّيخ محمّد المصطفى فيقول :"انظر أيدك الله تعالى ما أجسر هذا الظّلوم وما أشدّ عدائه على حدود الحي القيوم" (الدّحاوي، الرّحلة:156) يفهم من هذا النّص أنّ الشّيخ كان يرى في الطّب مهنة مستقلة لا يمكن أن يقوم بها إلاّ من اكتسب خبرة طبيّة تؤهّله لذلك، وهذا ما صرح به في تلخيص الجمان حين قال: "وغير خفي على ذي العقل السّليم والطّبع القويم أنّ العلّوم قسمان علم الأديان وعلم الأبدان والأوّل مشيّد الأركان في كل أوان وثابت البنيان بحمد الله في كل زمان، والثّاني قد نبذ ظهريا وجعل نسيا منسيا" (الدّحاوي، الجمان:07)، وأكّده قبل ذلك في كتابه الرّحلة القمريّة حين

قال: "إذ الطّب علم من العلّوم بل قالوا علم الابدان مقدم على علم الأديان وجاهل الطّب يضمن موجب فعله بإجماع" (الدّحاوي، الرّحلة،156).

4-يمكن اعتبار كتاب تلخيص الجمان لمحمّد المصطفى نوعًا من أنواع التّواصل بين المشرق والمغرب الإسلامي فكتاب حياة الحيوان كتاب مشرقي كان له أثر كبير لدى علماء المغرب الإسلامي، وإن كان وسبق أن ترجم الشّيخ محمّد المصطفى للشيخ الدّميري لكن لا بأس أن نظيف ترجمة وافيّة عن هذه الشّخصيّة التي وصل تأثير مؤلّفاتها إلى غاية بلاط باي الغرب الجزائري فنقول:

أ- اسمه ومولده: هو كمال الدّين أبو البقاء محمّد بن موسى بن عيسى-بن علي الدّميري بالفتح والكسر نسبة إلى دمرة قريّة مصريّة (ابن العماد، ب.س:79)، ذكر السّخاوي أنّ اسمه كان كمالا بغير إضافة وكان يكتبه بخطه في كتبه ثم تسمّى محمّدا وصار يمحو الاسم الأوّل لتضمنه نوعا من التّزكيّة (السّخاوي، ب.س:59). وهذا يوافق ما وصف به بأنّه: "كان أحد الصّوفيّة السّعداء وشاهدًا وقفها له نظم جيد وحظ وافر من العبادة والخير حتى كان بآخره يسرد الصّوم"، أي أنّه أخر حياته تصوف وزهد فالدّنيا وأصبح ممّن يصومون بلا انقطاع قال السّخاوي: "له أذكار يواظب عليها وعنده خشوع وخشيّة وبكاء عند ذكر الله سبحانه" (السّخاوي، ب.س:62) وقال عنه ابن العماد الحنبلي: "ويذكر عنه كرامات كان يخفيها وربّما لأظهرها وأحالها علي غيره" (ابن العماد ب.س،80 ، أشارت بعض المصادر أنّ الشّيخ الدّميري كان أكولا في صباه، لكن يظهر أنّ حاله تغيّر بعد ذلك.

تختلف المصادر حول تحديد تاريخ ميلاده، فيري ابن عماد الحنبلي أنّه ولد أوائل سنة 742هـ)ابن العماد،ب.س:79)، ووافقه السّخاوي بل صرح هذا الأخير أنّه نقل هذا التّاريخ من خط الشّيخ الدّميري (السّخاوي،ب.س:59)، في حين ذهب صاحب كتاب بهجة النّاظرين أنّ الشّيخ ولد في حدود سنة 750هـ (الغزي،2000: 101).

ب-تكوينه العلّمي ورحلاته: يظهر أنّ الشّيخ الدّميري في بداية حياته لم يكن مشتغلا بالتّحصيل العلّمي بل كان يشتغل بمهنة الخياطة (السّخاوي،ب.س:59) ثم تفرغ للتحصيل العلّمي ولعلّ المصدر الوحيد الذي ذكر بالتّفصيل تكوين الشّيخ الدّميري

ورحلاته العلّميّة هو الإمام السّخاوي حيث ذكر شيوخه وهم: البهاء أحمد بن التّقي السّبكي، الكمال أبي الفضل النّويري الجمال الأسنوي، ابن الملقن حيث وصفه بشيخنا والبلقيني والبرهان القيراطي أخذ عنه الأدب والعربيّة، والبهاء بن عقيل ومظفر الدّين العطار، والشّيخ العرضي، وأبي الفرج ابن القاري والحراوي، بمكّة أخذ عن: الجمال بن عبد المعطي، والكمال محمّد بن عمر بن حبيب، وبالمدينة أخذ عن: العفيف المطري (السّخاوي،ب.س:59-60).

كما ذكر السّخاوي رحلاته الحجّيّة فأوّل رحلته إلى الحجّ كانت سنة 762هـ بقي بها عامين، وحجّ سنة 768هـ، وحجّ سنة 772هـ وبقي بمكّة سنتين حيث حضر وفاة شيخه البهاء السّبكي، ثم حجّ سنة 775هـ وبقي بها سنتين، وحجّ سنة 780هـ وبقي بها حتى السّنة التي تليها وحجّ، ثم حجّ سنة 799هـ وبقي بها حتى السّنة التي تليها وحجّ، ثم عاد للقاهرة واستقر بها إلى غاية وفاته.

يعتبر الشّيخ الدّميري من أعيان المذهب الشّافعي في زمانه ولا أدل على ذلك من ورود ترجمته في " كتاب بهجة النّاظرين إلى تراجم المتأخرين من الشّافعيّة البارعين".

ج-نشاطه العلّمي ومؤلّفاته: يظهر أنّ الشّيخ الدّميري كان صاحب نشاط علمي كبير حيث درس في أماكن عديدة ولعلّ أهمّها تسمعه للحديث في جوف الكعبة، كما درس بجامع الأزهر حيث كانت له حلقة يوم السّبت، كما كان يحدث بالقبّة البيبرسيّة، ودرس بمدرسة ابن البقري داخل باب النّصر بالقاهرة بيوم الجمعة، ودرس بالجامع الظّاهر بالقاهرة بعد عصر الجمعة كما درس بمكّة المكرّمة وتولي الإفتاء بها (السّخاوينب.س:60-61).

أمّا مؤلّفاته فهي عديدة منها:

- شرح على سنن ابن ماجة في نحو خمسة مجلّدات سماه الدّيباجة لم ينهه؛
- شرح المنهاج وسماه النّجم الوهاج لخّصه من السّبكي والأسنوي فرغ منه سنة 806هـ؛
- أرجوزة في الفقه فيها طويلة قال السّخاوي عنها: "طويلة فيها فروع غريبة وفوائد حسنة"؛
- كتاب التّذكرة؛

- اختصار شرح الصّفدي للاميّة العجم قال السّخاوي: " فأجاده ورأيت من غرائبه فيه وفله "؛

- كتاب حياة الحيوان الكبرى والوسطى والصّغرى قال عنه السّخاوي: "نفيس أجاده وأكثر فوائده مع كثرة استطراده فيه من شيء إلى شيء"، أمّا حاجي خليفة وصف هذا الكتاب فقال: "جامع بين الغث والسّمين"، ولعلّ ما أشار إليه حاجي خليفة هو ممّا قال عنه السّخاوي: "فيه زيادات لا توجد في جميع النّسخ وأتوهم أنّ فيها ما هو مدخول لغيره، إن لم تكن جميعا لما فيها من المناكير"؛

- كتاب حاوي الحسان من حياة الحيوان: نسبه له خير الدّين الزّركلي نقلا عن علي الخاقاني، ولكن وبعد الإطلاع على نسخة منه محفوظة بالمكتبة الوطنيّة الفرنسيّة تبين لنا أنّه ليس من تأليفه بل من تأليف محمّد بن عبد القادر بن محمّد الدّميري الحنفي ولعلّ تشابه الأسماء أوقعهم في هذا الوهم. ويظهر أنّ كتاب حاوي الحسان هذا كان مشهورًا متداولا لدى علماء معسكر فقد ذكره كل من محمّد المصطفى في تلخيصه للحياة الحيوان وذكره في كتابه الرّحلة القمريّة، وهذا ما يجعلنا نفترض أنّ النّسخة الموجودة اليوم بالمكتبة الوطنيّة الفرنسيّة من مقتنيات بايات معسكر ووهران التي نهبت بعد احتلال قوات الشّر الفرنسيّة للجزائر.

د-وفاة الشّيخ الدّميري: إن كانت المصادر التي ترجمتْ للشيخ الدّميري تختلف حول تاريخ ميلاده فإنّ هذه الأخيرة تختلف كذلك فيما يخصّ تحديد تاريخ وفاته فأشار بعضها أنّه توفي ثالثّ جمادى الأولى سنة 808هـ (السّخاوي، ب. س:61) أمّا صاحب بهجة النّاظرين فذكر أنّه توفي في شهر جمادى الأخيرة لا الأولى (الغزي،2000:101) ودفن بمقبرة الصّوفيّة سعيد السّعداء بالقاهرة.

5-يدخل هذا المخطوط ضمن تأليف واشتغال علماء الجزائر بالعلّوم العقليّة، وهو علم الحيوان الذي عرفه حاجي خليفة فقال: "هو علم يبحث عن أحوال خواص أنواع الحيوانات وعجائبها ومنافعها ومضارها وموضوعه جنس الحيوان البري والبحري والماشي والزّاحف والطّائر وغير ذلك، والغرض منه التّداوي والانتفاع بالحيوانات والاحتماء عن مضارها والوقوف على عجائب أحوالها وغرائب أفعالها" (حجّي ب.س:690).

3 منهجيّة الشّيخ محمّد المصطفى في تدوين التّلخيص وعملنا في التّحقيق:

3-1منهجيّة الشّيخ محمّد المصطفى في تدوين تلخيص الجمان: على ضوء ما صرح به الشّيخ محمّد المصطفى في مقدّمته لتلخيص الجمان يمكن أن نحصر منهجه في إعداد هذا الكتاب في أسلوبين:

الأسلوب الأوّل المتمثّل في جمع أهم ما ورد في كتاب الحيوان من وصفات طبّيّة ورقي وأدعيّة قرآنيّة وأحاديث نبويّة يمكن استعمالها في التّداوي حيث قال: "أجمع له خواص الحيوان من كتاب حياة الحيوان للحافظ الدّميري مع ما استطرده خلالها من الأدعيّة المأثورة والرّقى المرويّة المبرورة على وجه الاختصار لا على معنى الاقتصار بحيث يجئ مجموعا خاليا من الملل والإسهاب عاريا من الإخلال والإطناب" (الدّحاوي الجمان:04) ولقد الزّم نفسه أسلوب الاختصار بمعنى لا يذكر إلاّ المهم وفعلا كان تلخيصه اختصارًا لكتاب الحيوان حيث أنّه حذف كل ما يتعلّق باللغة والفقه والتّاريخ والأشعار وغيرها من مضامين الكتاب واحتفظ فقط بتعريف الحيوان تعريفًا مختصرا ومن ثم ذكر خواصه.

اختصار في بعض الأحيان جاء مخلا لمضمون النّص الأصلي فبعض الخصائص نسبها لغير محلّها وبعض التّعريفات جاءت ناقصة لكنّ الإشكال لا يعلم هل هذا النّقص والخلل صادر عن الشّيخ محمّد المصطفى نفسه أم عمن نسخ المخطوطات طبعا لا يمكننا الإجابة عن هذا السّؤال ما لم نقف على النّسخة الأصليّة.

أمّا عن منهجه في الاختصار فيمكن أن نستنتج على ضوء نص المخطوط أنّ الشّيخ محمّد المصطفى ذكر 149 حيوان من أصل 1098 حيوان ورد ذكرها عند الدّميري، والذي يظهر لنا أنّ الشّيخ محمّد المصطفى حذف أسماء الحيوانات التي لا يعرفها كما حذف أسماء الحيوانات التي ذكرها الدّميري بأسماء مختلفة كما هو الحال مع الأسد الذي ترجم له في مواضع عديدة تحت اسم الاسم حيدر والضّرغام، كما حذف تراجم بعض الحيوانات الأسطوريّة كالتّنين والعنقاء، ودمج بعض الحيوانات التي تتشابه خواصها كالكلب مع الجرو والحمار الوحشي مع الحمار، كما يظهر لنا -هذا افتراض- أنّ الشّيخ محمّد المصطفى كان في عجلة من أمره من أجل إنهاء هذا العمل الذي طلبه منه الباي فلم

يهتم بأمر بعض الحيوانات الواردة في أصل الكتاب، بحيث أنّه لم يبد رأيه في بعض الأحاديث الموضوعة التي أوردها الدّميري في كتابه ولم يعلّق على تلكم الطّلاسم الواردة في أصل الكتاب، بل أثبتها وذكرها في تلخيصه.

كما اجتهد محمّد المصطفى في ترجمة بعض المفردات التي وردة في كتاب حياة الحيوان وعدد هذه المفردات المشروحة ثلاث كلمات، استعان بالقاموس المحيط لشرحها، لكن السّؤال كان فيه كلمات أولى بالشّرح من هذه فعلى أي أساس اختار هذه الكلمات دون غيرها.

وممّا اجتهد فيه الشّيخ المصطفى هو إضافة بعض الفوائد والخواص من كتاب تذكرة أولي الألباب لداود الأنطاكي، لكن لم يوضّح الشّيخ منهجه في نقل هذه الفوائد ما يجعل الأمر وكأنّه عشواء.

المصادر المعتمدة من طرف الشّيخ: لقد صرح الشّيخ محمّد المصطفى أنّه استفادا كثيرا من خزانة كتب الباي عثمان فقال: "لأنّه أيّده الله تعالى أعانني بالكتب المحتاج إليها من خزانته عمرها الله تعالى بذكره ومديد صيته فنحن نقتبس من تلك المصابيح ذباله ونغترف من ذلك البحر بلالتّه" (الدّحاوي الجمان:05)، فإذا أحصينا عدد الكتب التي استعان بها الشّيخ وجدْتها تعد على رؤوس الأصابع وهي:

- كتاب حياة الحيوان للدميري فلا شكّ أنّ النّسخة التي اعتمدها الشّيخ محمّد المصطفى هي النّسخة المستودعة في مكتبة الباي عثمان، بل هي نفسها النّسخة التي كان يطالعها الباي وأمر الشّيخ بتلخيها؛
- كتاب تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكي الطّبيب؛
- كتاب القاموس المحيط للفيروز آبادي؛
- كتاب كعبة الطّائفين لمحمّد الصّائم الجزولي؛
- كتاب الفوائد الجليّة البهيّة على الشّمائل المحموديّة للترمذي لشيخ جسوس.

3-3 النّسخ المعتمدة: لإخراج نص هذا المخطوط كما أراده صاحبه أو قريب منه تم الإعتماد على نسختين مخطوطتين يظهر أنّهما منسوختيْن عن النّسخة الأمّ أو منسوختيْن عن بعضهما البعض لتشابههما في كثير من الأخطاء والتّحريفات الواقعة في المتن وهما:

أ-نسخة المكتبة الوطنيّة المغربيّة بالرّباط: وهي النّسخة المعتمدة كأساس التّحقيق، وقد تم اعتمادها كأصل لتمامها حيث ورد في هذه النّسخة تاريخ كتابة هذا المخطوط الأمر الذي سقط في النّسخة الثّانيّة، ولقلّة الأخطاء بها ويظهر أنّها نسخة مصحّحة حيث نجد على حواشيها بعض التّعليقات والتّصحيحات وهي من مقتنيات مكتبة الشّيخ عبد الحي الكتاني حيث نجدها مفهرسة في المكتبة الوطنيّة تحت رقم ك374 ويظهر لنا من خلال الإطلاع على بعض مؤلّفات الشّيخ عبد الحي الكتاني التي خطها بيده أو بعض إجازاته لعلّماء الجزائر، فإنّ التّعليقات التي على حواشي هذه النّسخة قد تكون من وضعه.

تقع هذه النّسخة في 109 لوحة، مسطرتها 20سطرًا في كل لوحة، نسخة سنة 1281هـ/1864م، لم يذكر النّاسخ اسمه، تتميّز هذه النّسخة بجماليتها حيث نجدها في بدايتها مزينة برسومات نباتيّة وزخرفات، ما يدل على قيمتها، كتبتْ بخط مغربي واضح إلاّ بعض الكلمات، كما تم استعمال ألوان عديدة ما بين البرتقال والأزرق والأخضر للإشارة إلى أسماء الحيوانات، كما استعمل اللون الأصفر والأسود، ولا يمكننا الجزم أنّ ناسخًا اتبع منهجًا معينًا في استعمال الألوان ما يجعلها للزينة فقط.

رمزنا لهذه النّسخة برمز (ر) للدلالة على مكان وجودها بمدينة الرّباط.

ب-نسخة مكتبة الملك عبد العزيز بالدّار البيضاء: تعتبر هذه النّسخة أقل إتقانا وأقل ضبطا بالمقارنة مع النّسخة الأولى، لذا تم اعتمادها كنسخة ثانيّة، من النّاحيّة الفنيّة تتسم هذا النّسخة كسابقاتها باللمسة الجماليّة من استعمال الألوان إلا أنّ هذه النّسخة خاليّة من الرّسومات الفنيّة وإن كانت بدايتها مزينة هي الأخرى، نجد نفس الخط مستعملاً في هذه النّسخة الخط المغربي للوهلة الأولى قد يعتقد من يطلع عليهما أنّهما لنفس النّاسخ لكن بعد مقارنة وتفحص للخطين تبين أنهما مختلفتيْن ولعلّ الرّاجح أنّ هذه النّسخة هي النّسخة الأولى ونظرا للنقص والسّقط الذي اعتراها اِضطُرَ أصحابها لإعادة نسخها بشكل أفضل.

تقع هذه النّسخة في 90 لوحة مسطرتها 22 سطرًا في كل لوحة، تم نسخها سنة 1281هـ/1864م، ونسخهما في نفس السّنة يعزز الفرضيّة السّابقة. كما تحوي هذه النّسخة كذلك في بعض حواشيها تعليقات وبمقارنة مضمون نسختي التّلخيص بكتاب

حياة الحيوان للدميري الذي يمكن اعتباره نسخة ثالثّة نظرا لكون جل مادة مخطوط تلخيص الجمان أصلها هذا الكتاب إلاّ المقدّمة والخاتمة، مكننا من معرفة مواضع السّقط الواقع في نسختي التّلخيص وكذا التّصحيفات والتّحريفات التي وقعت فيهما من التّصحيفات والتّحريفات الواقعة في نسختي التّلخيص تصحيف الطّبراني إلى الطّبري، والجاحظ إلى الحافظ، ومن الأخطاء كتابة حياة الحيوان في كلتا النّسختين حيات ومن التّحريفات تحويل القزويني إلى الغزالي عند التّرجمة للحرباء وتحريف النّسفي إلى البهيقي عند التّرجمة للحدأت، كما أنّ بعض التّراجم مبتورة ناقصة كترجمة السّرطان.

التّعليقات:

تعليق رقم01: إجازة من الشّيخ محمّد بن عبد الله الجيلالي للشيخ عبد القادر بن عبد الله الدّحاوي، مخطوط مصور بمكتبة الشّيخ الجيلالي مغوفل جدويّة ولاية غليزان.

تعليق رقم 02: الأُرْبِيّة أهل بيت الرّجل وبنو عمه

تعليق رقم 03: وثيقة مخطوطة مصورة بمكتبتي

تعليق رقم 04: مقصوده هنا بالسّنة العجميّة شهر يناير لأنه تحدث بعد ذكر هذا التّاريخ كيف أن الباي محمّد أرسل للطلبة كميات من التين والجوز والزّبيب والتّمر احتفالا بالنّاير.

قائمة المصادر والمراجع:

- بن بكار،بلهاشمي،(1961)، كتاب مجموع النّسب والحسب وفضائل التّاريخ والأدب تلمسان: مطبعة ابن خلدون.
- حجّي،خليفة،(بدون سنة)، كشاف الظّنون عن أسماء الكتب والفنون، بغداد: منشورات مكتبة المثنى.
- الدّحاوي،محمّد المصطفى، الرّحلة القمريّة في السّيرة المحمّديّة. مخطوط مصور بالمكتبة الوطنيّة الجزائريّة، تحت رقم 3322
- الدّحاوي، محمّد المصطفى، تلخيص الجمان من حياة الحيوان. مخطوط مصور بالمكتبة الوطنيّة بالرّباط تحت رقم ك371.
- الدّحاوي، محمّد المصطفى، كتاب الإكتفا في حكم جوائز الأمراء والخلفاء، مخطوط مصور بمكتبة خاصّة.
- الرّاشدي،ابن سحنون،(2013)، الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني، تحقيق: المهدي البوعبدلي، الجزائر: دار المعرفة الدّوليّة.
- الزّقاي، محمّد بن موسى، (2011)، إتمام الوطر في التّعريف بمن اشتهر في أوائل القرن الثّالثّ عشر، تح: ماحي كندوز، الجزائر: دار كردادة للنشر والتّوزيع.
- السّخاوي، شمس الدّين، (ب.س)، الضّوء اللامع لأهل القرن التّاسع، ج09، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
- سعد الله، أبو القاسم،(2011)، تاريخ الجزائر الثّقافي، طبعة خاصّة ج07، الجزائر: عالم المعرفة.
- ابن العماد، عبد الحي الحنبلي،(ب.س)، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب،ج07، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة.
- الغزي، محمّد بن أحمد الشّافعي، (2000)، كتاب بهجة النّاظرين إلى تراجم المتأخرين من الشّافعيّة البارعين، ضبط نصه وعلق عليه: أبو يحي عبد الله الكندري، ط01، لبنان: دار ابن حزم.
- الفرقان، حسن، (2014)، أدبيات الأوبئة في مغرب القرن 19 نموذج أقوال المطاعين في الطّعن والطّواعين للعربي المشرفي، المملكة المغربيّة: منشورات دار التّوحيدي.

- الكتاني، جعفر، (بدون سنة)، الشّرب المختصر والسّر المنتظر من معين أهل القرن الثّالثّ عشر، فاس: النّاشر الموسوعة الكتانيّة لتاريخ 5.

- الكتاني، عبد الحي، رحلة إلى الغرب الجزائري، مخطوط مصور بمكتبة الباحث سفيان من ولاية باتنة.

- الكتاني، عبد الحي، (1986)، فهرس الفهارس والأثبات و معجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، اعتناء احسان عباس، ج01 لبنان: دار الغرب الإسلامي.

- المازاري، الآغا بن عودة، (2007)، طلوع سعد السّعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا، تحقيق: يحي بوعزيز، المجلد 01 الجزائر: دار البصائر للنشر والتّوزيع.

- المقري، بدر (2006). خطط مشرق المغرب (الإصدار01). المملكة المغربيّة :وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة.

- النّاصر، أبو راس، (1990)، فتح الإله ومنته بالتّحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق: محمّد بن عبد الكريم، الجزائر: المؤسسة الوطنيّة للكتاب.